اللغة والهوية

أ.د. نورة صالح الشملان

إن الحديث عن علاقة اللغة بالهوية حديث يطول ويتشعب ولا يسمح الوقت المتاح لهذه المحاضرة بالتفصيل فيه وسأكتفي بطرح بعض الأسئلة من جهة ومحاولة تشخيص الواقع من جهة أخرى وكل ذلك بإيجاز شديد والسؤال الذي يطرح نفسه في ضد المقام اين أبناء العرب من لغتهم ؟ التي تمثل أصالتهم وهويتهم ؟

قبل محاولة الإجابة عن السؤال لابد من التأكيد على أن اللغة هي اساس التواصل الفكري والحضاري وللغة العربية قد سية خاصة لانها هي اللغة التي اختارها المولى عز وجل لتكون لغة كتابة المقدس الذي أنزله على سيد البشر النبي العربي

وقد أكد المولى عربية القران في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الزخرف الاية (3) (إنا جعلنا قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) وقال في الاية (3) في سورة فصلت (كتابُ فصلت أياتُه قرآناً عربياً لقوم يعلمون) وقال في الاية 28 من الزمر (قرأناً عربياً غير ذي عوج) .

وحث الرسول الكريم والخلفاء الراشدون والسلف الصالح على ضرورة الاهتمام باللغة العربية في أحاديثٍ وأقوال تفوق الحصر وإذا كان حب العرب للغتهم يبدو أمراً طبيعياً فإن حب الشعوب الأخرى التي دخلت الاسلام يثير الاعجاب ولو بحثنا عن علماء اللغة والنحو الذين بذلوا جهوداً كبيراً في المحافظة على اللغة العربية بدافع من حبهم للإسلام وانكبابهم على القرآن لوجدنا أن أكثرهم من الاعاجم مثل ابن جني عالم اللغة المشهور والاخفش وسبيوية وأبو على الفارسي وغيرهم كلهم تركوا لغاتهم الأم وانكبوا على اللغة العربية دراسة وتدريباً .

وكانت عناية الخلفاء الامويين والعباسيين في اللغة العربية فائقة فالمنصور مثلاً أمر بتعريب الكتب اليونانية في الهندسة والطب والمنطق .

وهورن الرشيد فعل مثل ذلك بل إنه استورد الورق من الصين وتحولت الكتابة من الجلود إلى الورق .

المأمون أكمل سيرة والده وزاد عليها فعربّ العلوم وأسس بيت الحكمة الذي كان يعج بالمترجمين والمؤلفين فتعانق التأليف مع الترجمة في إنتاج ثروة هائلة من المعرفة تحددت عبرها ملامح الهوية العربية التي سادت العالم فماذا عن اللغة العربية اليوم .

كثر الحديث منذ منتصف القرن الماضي عن اللغةِ وأهميتها في صنع الهوية ، ولعل ذلك يعود إلى ما عانته اللغة العربية من ضعف ، بسبب انصراف أهلها عنها ، إما إلى الدعوة إلى اللهجات استنادًا إلى ما كان من أمر اللغات الأوربيةِ الحديثةِ التي انبثقت من اللاتينية ، أو إلى التعلق باللغة الأجنبية لأهميتها في العلم أو لغير ذلك .. لقد خلق ذلك تحديًا أمام اللغة العربية التي هي حاضنة فكرية وعامل مهم في تجسيد خصائص الأمه والمحافظة على تاريخها واستمراريتها فهي حلقة الوصل بين الماضي والحاضر والمستقبل .

إن استهداف اللغة أو أضعافها يعد مساسًا بكيان الإنسان وتحطيمًا لهويته . وقد فطن علماؤنا القدماء إلى الربط بين قوة الأمة وقوة لغتها فقال ابن حزم (.. إنما يقيد لغة الأمه علومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وأن اللغة يسقط أكثرها بسقوط أهلها ودخول غيرهم عليهم ..)[1] .

[1] ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ج1 ص32

واللغة العربية تمتلك من الإمكانات ما يجعلها لغة علمٍ فهي قادرة على التفاعل مع اللغات الأخرى ومن خلال الاشتقاق والنحت والتركيب المزجي تنتج الفاظًا جديدة تواكب مستجدات العصر .

ولقد فطن الاستعمار إلى مكانة اللغة وأثرها في استلاب هوية الشعوب المغلوبة فوجه جهوده إلى تدمير اللغة الذي أدى بدوره إلى تدمير الهوية

وانعدام الانتماء والضياع في متاهات الغالب الأقوى بل أن الأمر يصل إلى شعور الإنسان بالنقص أمام الآخر فيقلده تقليدًا أعمى بسبب تصاغر ذاته واعتقاده أن السلوك الحضاري يتمثل في ممارسة لغة الآخر وعاداته وتقاليده ، وهذا تراه عيانًا بيانًا وهو ترجمة لما قال ابن خلدون قبل قرون (المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده) .

إن اللغة العربية تعيش بين أهلها في غربة فهي تشوه باللحن وتهجر استنادًا إلى الزعم الخاطئ أنها غير قادرةٍ على مواكبة العصر وتعددت معاول الهدم أمامها ولعل أول هذه المعاول وسائل الاتصال المسموعة والمرئية التي تملك النفوذ الجماهيري وتقدم زادًا رديئًا في أكثر الأحيان .

إن اللغة في التلفاز تتعرض يوميًا لموجات من التشويه والتحريف وإساءة استعمال المصطلحات وسيادة اللهجات العامية أو اللغة الأجنبية ، إن الإنسان لا يحتاج إلى جهد كبير ليدرك سيطرة اللغة الأجنبية على الحياة العامة وهو أمرٌ يتساوى في الإحساس به المفكر والإنسان البسيط فقد شاعت الأسماء الأجنبية على المحلات التجارية شيوعًا يدعو إلى الحزن

وتحولت الكثير من المعاملات في المصارف والأسواق والمطاعم والفنادق إلى اللغة الإنجليزية وشاعت الألفاظ الأجنبية في الخطاب اليومي وعبارات المجاملة والتواصل وفسدت ألسنة النشء الذي صار يتكلم لغةً هجينةً تثير الضحك والحزن معًا .

وحرص كثير من الآباء على إلحاق أبنائهم بالمدارس الأجنبية وعدوا ذلك مفخرةً ودليلاً على الرقي (وفضل في مجال العمل الخريج الذي درس باللغة الإنجليزية على الخريج الذي درس باللغة العربية) .

وأصيب الرسم العربي بمقتل بظهور العربيزي لغةً متداولةً بين الشباب في منتدياتهم وحلت الأرقام محل الحروف ..الخ .

ولم يقف المخلصون للغة موقف المتفرج من هذا العبث فعقدت المؤتمرات والندوات وألفت الكتب وألقيت المحاضرات لتشخيص تلك الأمراض ، واقتراح العلاج الناجح وفي العام الماضي على سبيل المثال عقدت ندوتان

- الأولى في بيروت بعنوان (العربية لغة عالمية : مسؤولية الفرد والمجتمع والدولة)
  26 – 30 / 4 / 1433 - 19 – 23 / 3 / 2012
- الثانية في المدينة المنورة بعنوان (اللغة العربية ومواكبة العصر)
  17 – 19 / 5 / 1433 - 9 – 11 / 4 / 2012

وقد تقدم للأولى ثلثمائة باحثٍ اجتاز التحكيم منهم ثمانون باحثًا ، كما تقدم للندوة الثانية ما يقارب ذلك وهذا الإقبال على هاتين الندوتين بعكس حالتي الفزع والإدراك أننا في مأزق ، قبل ذلك عقدت عشرات المؤتمرات منها

على سبيل المثال لا الحصر :

- نـدوة ظـاهرة الضـعف اللغـوي فـي المرحلـة الجامعيـة التـي عقـدت فـي جامعـة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- الملتقـى الأول لحمايـة اللغـة العربيـة بعنـوان (معًـا نحمـي اللغـة العربيـة الـذي عقـد في الشارقة)

وعـولج فـي هـذه المـؤتمرات الكثيـر مـن القضـايا المتعلقـة باللغـة والهويـة نحـو التحـديات التـي تواجـه اللغـة فـي عصـر العولمـة وواقـع اللغـة فـي الخطـاب الإعلامـي المعاصـر كمـا تناولـت المـؤتمرات قضـايا الترجمـة والتعريـب ، وحثـت المجـامع اللغويـة علـى القيـام بواجبهـا فـي توحيـد المصـطلحات ، ونـادت بعـض الدراسـات بضـرورة الاهتمـام بتقليـل حدة الصراع بين الفصحى والعامية .

وقـدمت بعـض أقسـام اللغـة العربيـة تجـاربَ جـادةً فـي النهـوض باللغـة ومعالجـة ضـعفها كـذلك تعليمهـا لغيـر النـاطقين بهـا ، وبمـا أن المعلـمَ يعـد ركيـزةً أساسـيةً فـي الحفـاظ علـى لغة الأجيال فقد قدمت الكثير من التجارب التي رمت إلى الارتقاء به وتأهيله .

وقـد نالـت اللغـة العربيـة فـي الـدفاتر والمواثيـق الرسـمية والنـوادي الأدبيـة والمجـالس الثقافيـة والمسـارح والبـرامج الترفيهيـة نصـيبًا كبيًـرا مـن بحـوث تلـك المـؤتمرات وتزاحمـت البحـوث التـي تناولـت علاقـة اللغـة العربيـة بالسـيادة الوطنيـة والهويـة مـن أجـل بنـاء علاقـةٍ قويـةٍ بـين الـذات والآخـر ، كمـا نـال نفـور الجيـل الجديـد مـن اللغـة العربية حظًا من الاهتمام والمعالجة .

ولعل أخر الغيث إقامة مركز الملك عبدالله بن عبد العزيز الذي يعمل جاهداً لحماية اللغة العربية والنهوض بها من كبوتها وأنا واثقه بإذن الله أن هذا المركز الذي يحمل اسم عبدالله بن عبدالعزيز المعروف بوطنيته وحرصه على الحفاظ على تماسك العرب والحفاظ على هويتهم المتمثلة أولاً بلغتهم .أقول أن هذا المركز بإذن الله سيعمل نقلة في حماية اللغة ومعالجتها مما أصابها من أمراض بسبب إهمال أهلها لها وآزروهم عنها .

مركز الملك عبد الله عبد العزيز لديه مادة جاهزة أعدها باحثون أكفاء ومصحوبة بتوصياتٍ واضحةٍ ويبدو لي أن المركز لو قام بتفعيل بعض تلك التوصيات وبخاصة وأنه يحمل اسم عبد الله بن عبد العزيز صاحب المبادرات والغيور على اللغة والهوية والقادر على إصدار قوانينَ ملزمةٍ للنهوض باللغة العربية ومعالجة تلك الأمراض التي تشكو منها في التعليم والإعلام والحياة العامة ، لو قام بتفعيل بعض تلك التوصيات لأسهم في الارتقاء باللغة العربية والنهوض بها املي كبير في المركز ولاسيما أن القائم عليه رجل عرف بالعلم والروية وإتقان العمل والواقعية والغيرة على الهوية ، إن وضع الأفكار والتوصيات التي أنجزتها تلك المؤتمرات والندوات والأبحاث في خطة عملٍ قابلةٍ للتنفيذ وعرضها على ولي الأمر كفيل بمعالجة هذه المشاكل .

ولنبدأ من دارنا وليكون مركز الملك عبد الله نموذجًا يحتذى في الدول العربية التي تعاني من هذه المشكلة ، المهم من أين نبدأ وكيف نبدأ ، ولا شك أن البداية من حيث انتهى الآخرون أفضل الطرق وأقصرها للوصول إلى نتائج ناجحةٍ فعالةٍ بإذن الله .